تدبُّر
المجلة العلمية لتدبر القرآن الكريم

مزاوجة القرآن

بين سنن الله في الأنفس وسننه في الآفاق

من رشد المقاصد إلى فاعلية الآثار

أ.د. رمضان خميس

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

في كلية الشريعة جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مزاوجة القرآن

بين سنن الله في الأنفس وسننه في الآفاق

Müzavecetu

El-Kur’an

Dr. Ramadan Khamis

1. Baskı: İstanbul
2025 - 1447

تدبُّر
العربية العالمية
لتدبر القرآن الكريم

مزاوجة

القرآن

بين سنن الله في الأنفس وسننه في الآفاق

من رشد المقاصد إلى فاعلية الآثار

أ.د. رمضان خميس

أستاذ التفسير وعلوم القرآن
في كلية الشريعة جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مزاوجة القرآن

بين سنن الله في الأنفس وسننه في الآفاق

من رشـــد المقاصـــد إلى فاعليـــة الآثـــار

أ.د. رمضان خميـــس

أستـــاذ التفسير وعلوم القرآن
في كلية الشريعة جامعة قطر

القياس: 14.5 X 21.5 سم

عدد الصفحات: 64 ص

ISBN: 978-625-5521-67-5

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

تدبُّر

الهيئـــة العالـــمية
لتدبر القرآن الكريم
22762 Doha,Qatar
+974 44181826
tadabborq@gmail.com

مكتبة الأسرة العربية

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طبـاعـة ونشـر وتوزيع
إصدارات مُختـارة للأسـرة العربيـة

www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat®

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لله وحده وصلاة وسلاما على من لا نبي بعده محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وآله وصحبه أما بعد،،،

فالمتأمل للقرآن الكريم مفردةً وأسلوبًا، ونظمًا وتركيبًا، وتقديما وتأخيرا، وذكرا وحذفا، وإظهارا وإضمارا، وعدولا وتحويلا... يجد أن له منهجيةً مطردة وطريقةً سارية مستقرة في التناول والعرض والذكر والحذف وفي كل سبيل يسلكه وطريقة يتبعها؛ حفزا للعقل أن يتابع ويعرف، وللنفس أن تتأمل وتعي، وللإنسان كل الإنسان أن يتدبر ويطبق، وفي هذا دعوة إلى المسلمين خاصة والبشر عامة أن يدوروا حول القرآن تدبرا وتثويرا وتأملا وتنزيلا؛ ففيه صلاحهم وفلاحهم في معاشهم ومعادهم؛ فالقرآن الكريم هو كتاب الزمان كله وكتاب المكان كله وكتاب البشرية كلها، امتد طولا حتى شمل آباد الزمن، وامتد عرضا حتى انتظم آفاق الأمم، وامتد عمقا حتى شمل أمور الدنيا والآخرة...

وكما قال ابن مسعود، رضي الله عنه وأرضاه: «**من أراد خير الأولين والآخرين فليثور القرآن، فإن فيه خير الأولين والآخرين**».[1]

(١) المعجم الكبير للطبراني ت حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية (٩/ ١٣٥).

وفي لفظ: «**من أراد العلم فليثور القرآن**» أي لينقر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته [١].

ومن خلال الدرس المنهجي والتدريس التعليمي والتتبع الواقعي لمضامين عديدة وقضايا وفيرة تأكد أن القرآن له منهجية ثابتة رائدة في تتبع قضاياه وفي عرضها في كل قضية من قضاياه يحسبها القارئ العاجل فلتة سائبة ويبصرها القارئ الراشد فيجدها مطردة متوازنة، كأنها سبيكة واحدة، يمهد أولها لآخرها ويؤكد آخرها أولها في تناغم واتساق..

وسنن الله تعالى في الأنفس والآفاق التي نقف أمامها الآن، والتي عرضها القرآن الكريم، عرضها بمنهجية لافتة للنظر توقفت أمامها طويلا وأنا أتتبع بحث السنن وحقولَها وفِعلَها في النفس والإنسان ووجدت أنه لا يوجد موضع يتناول سنن الله في الأنفس إلا ومعه سنة من سنن الله في الآفاق.

إن سنن الله تعالى سواء أكانت كونية أم بشرية مرتبطة أشد الارتباط في وحدة نظامية يأخذ بعضها بحجز بعض، وتتماسك فى اتساق حتى تكون نظاماً كونياً متناسقاً أبدع ما يكون التناسق، يسير العالم فى ظله بسماواته وأراضيه ومن فيهما وما فيهما وما بين ذلك من خلق لا يعلم عدده ولا حقائقه إلا مقدره وخالقه، محكوماً بتلك السنن الإلهية التي لا تحيد عن خطها المرسوم فى لوح الأزل، وإنما عقول البشر هي التي قد تنحرف عن مهيع التناسق الكوني إفراطاً أو تفريطاً، قصوراً عن إدراك وشائج التناسق، أو جموحاً فى ارتياد تلك الوشائج، فتتوهم

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر مجد الدين أبو السعادات، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي (١/ ٢٢٩).

وتتخيل، ثم لا تلبث الحقائق الكونية في سنن الله أن تردها إلى دائرة الحقيقة الكونية الكبرى[١] ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمَا قَدِيرٗا ٤٤ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾ [فَاطِر: ٤١ – ٤٥].

وهذا قُل من كُثر وغيض من فيض ونزر يسير من معين لا ينضب؛ ولم لا؟ وهو الذي لا يَخْلَق على كثرة الرد، ولا تنتهي عجائبه، ما إن سمعته الإنس حتى قالوا (إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة)[٢]، وما إن سمعه الجن حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾ [الجن: ١]... حتى استقر في نفسي أنه لا توجد سورة من سور القرآن عرضت لسنن الله في الأنفس إلا وقد عرضت لسنن الله في الآفاق.

لقد كان هذا الشعور خاطرا فصار حاضرا، وكان في نفسي توقعا فأصبح واقعا؛ فقد حصرت في مشروع سنني كامل يتغيا استقراء آيات السنن في

(١) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، للمرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون، ص٣، ط الدار السعودية، ط الثالثة، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي مخرجا أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، ت: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨، (٢/ ١٩٩).

القـرآن الكريـم في مشروع تفسيري عكفـت عليه عدة سـنوات – فوجدت أن آيات السـنن بلغت سبعا وسـتين ومائة وألف (١١٦٧) سنة من سنن الله تعالى [١]، وكل سـورة بل كل موضع وردت فيه سـنة من سنن الله في الإنسان وردت فيه سـنة من سـنن الله في الأكوان، سواء على مسـتوى الكون وظواهره أو سنن التاريخ وعبره في قصص القرآن أو حديثه عن الغابرين.

إن أول ما نزل من القرآن طرا جمع بين قراءة المسـطور والمنظور، ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العَلَق: ١ – ٢].

ولا شـك أن هذا الاطراد له مقاصد وغايات، وله آثار ونتائج على مسـتوى المعرفـة والترشـيد وعلى مسـتوى التطبيق والتنزيل، وتسـعى هذه الدراسـة إلى محاولة الكشـف عن ملامح هذه المنهجية القرآنيـة المطردة، للوصول إلى غاياتها ومقاصدهـا مـن هـذه المزاوجة، وتلمـس آثارهـا ونتائجها في الوعي والسـعي وفي الإدراك والحـراك وفي التأصيل والتنزيل، وفي الفهم والتسـخير قدرَ الطاقة البشرية، فإن أصبت غايتي فأمل بعيد أوشك على التحقق، وإن كانت الأخرى فحسـبي نية صادقة وجهد مبذول، (ومن أكثر من الطرق أوشـك أن يفتح له) أو كما قـال أبـو الدرداء(من يكثر قرع الباب يوشـك أن يفتح له)[٢] (ومن أدلج بلغ المنزل) [٣]

---

(١) نحو تفسير سـنني لسـور القرآن الكريـم، ط أولى عـام ٢٠١٤م- ١٤٣٥هـ ط دار المقاصـد، د رمضان خميس، الكتاب يلخص فكرة هذا المشروع.

(٢) مصنف ابن أبي شـيبة ت: كمال يوسـف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ (٦/ ٢٢).

(٣) المسـتدرك على الصحيحين للحاكم لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسـابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشـر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعـة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠ (٤/ ٣٤٣).

لا تلم كفي إذا السيف نبا ❁❁❁ صح مني العزم والدهر أبى [١]

وسؤال الدراسة الرئيس هو: هل للقرآن الكريم منهجية في مزاوجته بين سنن الأنفس وسنن الآفاق؟ وما أثر هذه المزاوجة ترشيدا وتأثيرا؟ ويتفرع عن هذا أسئلة منها:

ما هذه المنهجية القرآنية في المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق؟

ما غايات منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق؟

ما آثار منهجية القرآن في المزاوجة هذه على الوعي والسعي والترشيد والتقصيد؟

وأسعى في هذا المضمار جاهدا أن أكشف عن جلاء علاقة المزاوجة أو خفوتها، وظهورها أو بهوتها، كما أنني أتغيا الوقوف على إبراز العلاقة بين الترشيد والتأثير في هذه المزاوجة القرآنية، وهل هي علاقة اطرادية أو عكسية وبيان أثر إدراك الفرد والمجتمع لهذه المنهجية في المزاوجة على مستوى الفرد والمجتمع وعيا وسعيا وإدراكا وحراكا...

ثم معرفة أثر السياق الخاص على منهجية المزاوجة...

وأعتمد في هذه الدراسة المنهاج الاستقرائي الناقص، - لكفايته وغنائه مساحةً وغرضا- في تتبع موارد آيات المزاوجة، وأسلك المنهاج التحليلي في تبيان غاياتها ومقاصدها، وأعتمد المنهاج المختار في التفسير الموضوعي الذي يلم شتات الفكرة في موضع واحد حتى تَبين صورتها للناظرين.[٢]

(١) البيت لشاعر النيل حافظ إبراهيم، انظر ديوانه.

(٢) يراجع في تبيان هذا المنهاج المدخل إلى التفسير الموضوعي، لأستاذنا د عبد الستار فتح الله سعيد ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط: الثانية ١٤١١هـ ١٩٩١م خاصة عند رصده للخطوات الثمانية لمنهج التفسير الموضوعي ص ٥٧ وما بعدها.

وتـأتي هذه الدراسـة بعـد المقدمة في مبحـثين وخاتمة؛ أما المقدمـة فأذكر فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وإشكاليته والمنهجية المتعبة في تناوله.

وأما مباحثه فتأتي على الصورة التالية:

- المبحـث الأول في منهجيـة القـرآن في المزاوجة بين سـنن الأنفس وسـنن الآفاق- الغايات والمقاصد.
- المبحـث الثـاني في منهجيـة القـرآن في المزاوجة بـين سـنن الله في الأنفس والآفاق- الآثار والنتائج.
- ثم تكون الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.
- والله وحده المستعان وعليه التكلان وهو نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الأول

غايات ومقاصد منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الأنفس والآفاق

قبل الحديث عن المنهجية القرآنية في المزاوجة أريد أن أضع بين يديك بعض القبليات التي تسهم في إحسان التصور لهذه القضية؛ فإحسان التصور سبب في إحسان التصوير؛ فالوعي قبل السعي والفهم قبل التسخير والإدراك قبل الحراك

قبليات معرفية

١- هل العلاقة بين سنن الله في الأنفس وسننه سبحانه في الآفاق جلية ظاهرة؟

التالي للقرآن الكريم بادي الرأي يدرك أن هذه العلاقة سارية في مفاصل السور بصورة سلسلة منسابة كأنها قطرة تسيل من فم السقاء، لا تلتفت إليها العين العابرة من شدة انسيابها وسلاستها؛ وهذا من إلفنا أو إلف أكثرنا على الأقل للقراءة التي تقف عند الرغبة في تحصيل الأجر والثواب؛ فهي ترى أن القراءة في ذاتها غاية، كما يقول السيد القطب (**وإلف النظرة يذهب بهاء العبرة**)، مع أن القرآن نفسه دعانا إلى القراءة البانية التي تحرك النفس والحياة ودعا إلى تنوع صور التعامل مع الآيات الكريمة في حالات متعددة؛ قصدَ ا للوصول إلى أبعد غايات التدبر: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ: ٤٦].

وعليه فهذه العلاقة بيِّنة جلية لمن امتلك أدوات الكشف عنها ولو كانت تلك الأدوات أساسية أولية، وليس شرطا أن يكون من العلماء المتبحرين أو المفسرين الراسخين بل سيأخذ كلٌّ على قدر كلٍ، وتلك من قِسم الأرزاق ومواهب الخلاق سبحانه

ولكن تأخذ الأفهام منه ❁ ❁ ❁ على قدر القرائح والفهوم [١]

٢- بين سنن الله في الأنفس وسننه في الآفاق عروة وثقى ووشيجة لا تنقطع

بين سنن الله تعالى في الأنفس وسننه في الأكوان صلاة وعلائق وروابط ووشائج، تمثل أثر صنع الله تعالى الحكيم، صنعه في الإنسان والأكوان على حد سواء، فسنن الله تعال في الأكوان ظاهرة باهرة سريعة اللمح بينة الوقوع، وسننه في الإنسان تتسم بكل سمات سننه في الأكوان غير أن زمن تحققها أوسع مدى وأبعد وقتا؛ فلذا يلفت نظرَ الإنسان ظواهرُ الكون لأنها مادية ملموسة سريعة محسوسة، يمكن القطع فيها عند الاختلاف؛ فإذا اختلفنا مثلا على: (متى يغلي الماء ومتى يتجمد) يمكن أن نرفع الخلاف في بضع دقائق هي المساحة الزمنية التي نُجري فيها التجربة بوضع كأس على موقد حتى يغلي وأخرى على مبرد حتى يتجمد وتنفض المعركة الخلافية حينئذ، أما إذا قلنا إن النصر له نواميس تحكمه وسنن يمضي من خلالها، فهذا أمر آخر يحتاج في إثباته عمليا إلى أوقات وسنوات، وقد نقتنع نظريا بتأصيل المسألة لكن من ناحية اليقين الحق أو حق اليقين أو عين اليقين فلا نصل إلى هذا بيسر كما وصلنا في تجربة الغليان للماء وتجمده، ومن هذه الوشائج الماسكة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق مثلا لا حصرا.

---

(١) البيت للمتنبي، انظر قصيدته إذا غامرت في شرف مروم...من ديوانه عناية مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية ط أولى ١٤٤٥هـ-٢٠٢٣م ت محمد البطشان ص ٥٧٢.

التوازن والنظام:

فالتوازن والنظام أساس الكون كله أنفسا وآفاقا من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة ومن سنن الله في الإنسان إلى سننه في الشعوب والمجتمعات والأمم بل في سننه تعالى في الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة وسننه في أصغر وحدة إنسانية مجتمعية (الأسرة).

وهذه الوشيجة الرابطة بين نوعي السنن الكبرى ماضية لا تتوقف ثابتة لا تنقطع...

«فلقد توصل علماء دراسة الذرة إلى ما حير الألباب وأذهل العقول بتكوين هذا الكون والنظام الذي يحويه... والقدرة التي يتحدث عنها إن نواة الذرة تحتوي على ٩ , ٩٩ من الوزن الذري، وقد وجد كذلك أن الشمس تحوي ٩ , ٩٩ من وزن المجموعة الشمسية، فعرفوا أن النواة في الذرة هي بمثابة الشمس في المجموعة الشمسية، ولوحظ كذلك أنه كما تدور الكواكب حول الشمس تدور الإلكترونات حول نواة الذرة؛ بل وجد ما هو أدق من ذلك، فالمسافة بين الإلكترونات بالنسبة لقطر الذرة معادلة لنفس المسافة بين الكواكب وقطر مجموعة الشمس[١].

وهذا التوازن والنظام المطرد بين مظاهر الكون لا يتوقف عند حد، ولا ينتهي عند نوع دون نوع من جوانب الكون، وهذا سر لفْتِ القرآنِ الكريم أنظارَ الناس إلى السماء وما فيها والأرض وما عليها، وكثر ربط هذه المظاهرة

(١) انظر: الله والعلم الحديث، صـ١٥٦، ١٥٧، دار الشعب ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م للأستاذ عبد الرزاق نوفل بتصرف يسير، وانظر خلق الإنسان بين العلم والقرآن ج٢ صـ٣٠٩، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦، للدكتور عبد الفتح طيره. وانظر أيضا القرآن والعلم الحديث، د/ منصور محمد حسب النبي، صـ٢٢٧، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م.

الواضحة بالسلوك البشري والفعل الإنساني وفي كل يوم يكشف العلماء ما يجعلهم يزدادون إيمانا بالخالق الذي وضع الميزان لكل ما خلق، وفي الحياة يستطيع أي مشاهد أن يلمس الاتزان الذي يظهر جليا فيما حوله. إن زوج الذباب العادي ينتج خمسا وعشرين مليونا من الذباب في العام، فكيف تكون الحال لو عاش الذباب أكثر مما يعيش؟!! ولو عمر الإنسان أو النبات أو الحيوان ولم يجر عليه ما يجري على الأحياء من الموت، فكيف تكون الحياة؟![1]

وهذا ما تجده في تعبير القرآن في جواب موسى عليه السلام على فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٤٩ – ٥٠].

والتعبير بـ ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ بيان لسنته تعالى في توازن عناصر كل مخلوق توازنا جرى على تقدير منسق محكم. والتعبير بقوله ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ بيان لسنة الله تعالى في توازن التمكين الذي أوتيه كل مخلوق في طرائق عيشه وضوابط حياته[2].

بل إن هذا الربط اللافت للنظر بين الخلق والهداية لعجيب جد عجيب؛ حتى إنه تكرر في حق إبراهيم ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٨]، وموسى ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]، ومحمد ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأَعلَى: ١ – ٣]، عليهم جميعا أزكى الصلاة والسلام حتى عد هذا التزاوج بين

---

(١) السابق صـ١٥٨، بتصرف يسير.

(٢) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، للمرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون، ص١٦، ط الدار السعودية، ط الثالثة، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

دليل الخلق ودليل الهداية برهانا بل حجة برهانية على أن الخالق هو من يهدي إلى الصراط المستقيم وأن الحياة بلا هداية كلا حياة بل هي الموت المحقق...

وهي هي الطريقة ذاتها والعادة نفسها التي مضى عليها القرآن الكريم حتى في تلقين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأمته من بعده حجتهم في عرض الدعوة على الخلق فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يُونُس: ٣٤ - ٣٥].

ولذا قال العلامة الرازي «**الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولا، ثم بالهداية ثانيا، عادة مطردة في القرآن،...وهو في الحقيقة دليل شريف، لأن الإنسان له جسد وله روح، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية**»[(١)]

وآيات القرآن الكريم توحي بهذا التوازن المطرد والنظام الدقيق الذي ينتظم الأشياء جميعها صغيرَها وكبيرَها على حد سواء...

«والثناء على الله تعالى بعد الأمر بتقديس اسمه الذي انبثقت منه سننه **الكونية في تدبير ملكه وتربية خلقه** بأنه قدر خلق كل خلق وسواه في أوضاع عناصره تقديرا متوازنا مع سائر عناصر الكون والحياة، بيان لسنة الله تعالى في نظامه الأبدي للكون. والثناء على الله سبحانه بأنه قدر خلق كل من خلق وسواه في صورة لا تتكرر وهي في موضعها من الحياة والكون، تؤدي مهمتها

(١) مفاتيح الغيب للرازي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ. ١٧/ ٢٤٩.

التي لا تؤديها صورة أخرى في مخلوقات الله، بيان لسنة التوازن الأبدي في خلق الله، وبيان لارتباط حياة كل مخلوق في طريقة عيشه بطبيعته وخلقته التي أبدع عليها.[١]

۞ الإحكام المطلق: (تقدير)

ومن أهم الوشائج بين سنن الأنفس وسنن الآفاق الإحكام في صنع كل حقل من هذه الحقول السننية على مستوى الأنفس ومستوى الآفاق هذا الإحكام الثابت والضبط المطرد؛ ذلك أن مدبرهما واحد، وهو ما عبرت عنه آية يس: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨﴾.

ولعل هذا الانضباط التام والإحكام المطلق الذي لا يجد الإنسان في جانب من جوانبه شيئا من فطور، هو ما جعل القرآن الكريم يلفت أنظار الناس إلى جوانب الكون ومظاهره، وجعل الله تعالى هذه الدلالات شواهد دالة على استحقاقه للتنزه والتقديس ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾ [المُلك: ١ - ٤].

(١) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم، صـ١٧، ١٨.

المطلب الأول

ملامح منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق

تتسم منهجية القرآن الكريم في المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق بعدد من الملامح، وقبل الحديث عن هذه الملامح كنت قد حرصت أن أستحضر عددا من النماذج من الآيات الكريمة التي شملت عددا من سنن الأنفس والآفاق أختارهم بصورة انتخابية ليست متعمدة، لكن عند التطبيق وجدت أن هذه النماذج غنية بالملامح والمعالم بما يجعلها تحتاج إلى دراسات مطولة لا يتناسب معها المقام ولا الزمان؛ فاقتصرت على نموذج واحد اخترته من سورة يس ثم أُجري عليه بعض المقابلات التي تؤسس المعنى الذي أريد الوصول إليه.

نموذج الدراسة من سورة يس من الآية ٣٠ إلى الآية ٥٤.

من قوله تعالى ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾ [يس: ٣٠ - ٥٤].

نلاحظ بداية أن الآيات الكريمة تناولت عددا من السنن في الأنفس والآفاق فمن سنن الأنفس:

◉ **سنة الله في موقف العباد من المرسلين،** ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾ [يس: ٣٠].

◉ **سنة الله في إهلاك القرون،** ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾ [يس: ٣١ - ٣٢].

◉ **سنة الله في موقف المدعوين من الآيات،** ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾ [يس: ٤٦].

◉ **سنة الله في الجزاء** ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾ [يس: ٥٤].

◉ هذه المجموعة من السنن وردت في سورة واحدة وآثرت فقط أن أطبق على وجهين من السورة الكريمة وإلا فالسورة فيها عدد آخر من سنن الله في الأنفس لكن حتى يكون النموذج بينا موصولا بصورة حاضرة، ومجموع هذه الآيات الكريمة ٢٤ آية أتت في وجهين من أوجه المصحف الشريف، إذا تأملنا هذا وجدنا في هذه الآيات الأربع والعشرين سننا في الآفاق تتناول الحديث عن:

- الأرض الميتة وإحيائها
- ما تنبته الأرض من حب منه يأكلون، وما فيها من جنات من نخيل وأعناب وتفجير ما فيها من العيون.
- الليل وسلخ النهار منه فإذا هم مظلمون
- الشمس وجريانها لمستقر لها وأن هذا تقدير العزيز العليم.
- القمر وتقديره منازل حتى عاد كالعرجون القديم.

- الانضباط والإحكام في جريان الشمس والقمر فهي لا ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون.
- حديث عن نجاة البشرية مع أبيها الثاني نوح عليه السلام: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: ٤١].

فبعد أن عرضت السورة الحديث عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب والمثل الذي ضربه لهم في قصة أصحاب القرية المكذبين وما انتهى إليه أمرهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٩] .. يبدأ الحديث في هذا الدرس **بالتعميم في موقف المكذبين بكل ملة ودين ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون**، وينادي على العباد نداء الحسرة وهم لا يتعظون بمصارع الهالكين، الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الدين: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: ٣٢]..

ثم يأخذ في استعراض الآيات الكونية التي يمرون عليها معرضين غافلين وهي مبثوثة في أنفسهم وفيما حولهم وفي تاريخهم القديم.. وهم مع هذا لا يشعرون، وإذا ذكروا لا يذكرون: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس: ٤٦].. وهم يستعجلون بالعذاب غير مصدقين: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يس: ٤٨] وبمناسبة الاستعجال والتكذيب يستعرض مشهدا مطولا من مشاهد القيامة يرون فيه مصيرهم الذي به يستعجلون، كأنه حاضر تراه العيون[١].

---

(١) في ظلال القرآن، الشهيد سيد قطب (١٣٨٧هـ)، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط/٣٢، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م). (٥/ ٢٩٦٦).

هذا العموم الذي لف العباد كل العباد وشمل القرون كل القرون، حتى نادى القرآن بالحسرة على العباد كل العباد، هذا العموم هو أهم سمة من سمات **السننية** والتي على أساسها يدعو القرآن إلى النظر والاعتبار ويدعوهم إلى النظر فيما حل بالقرون الأولى وأن يذكروا نعم الله تعالى عليهم في هذه الأرض بما فيها وما عليها وهذه السماء وما تحمل من شموس وأقمار، والليل والنهار، وتسخير هذا الكون كله لهم حتى يكونوا هم عبادا لله ولله وحده لا لأحد سواه.

نلحظ من ملامح هذا التناول والتزاوج بين سنن الأنفس وسنن الآفاق ملامح من أهمها:

۞ التماسك والاتساق بين سنن الأنفس وسنن الآفاق

يعرض القرآن الكريم سننه بنوعيها في صورة متناسقة متماسكة يمهد سابقها للاحقها ويؤكد لاحقها سابقها في صورة سلسلة منسابة، لا عوج ولا أمت ولا تكلف ولا اعتساف، بل تسري الآيات كلها آخذ بعضها بحجز بعض، لا يشعر القارئ بينها بانقطاع أو انفلات،... ولولا التنبيه عليها والإشارة إليها لما التفتت العين المقتحمة إلى هذا التنوع بين حقلي السنن، وقد نصت آيات القرآن تأصيلا إلى سبب هذا التماسك في آيتين عجيبتين، آية فصلت: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٥٣].

وآية الأعراف﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأَعرَاف: ٥٤].

وفي هـذا إشـارة إلى» أن كل ما سـوى الله تعالى إما من **عـالم الخلق** أو من **عالم الأمر**، أما الذي هو من عالم الخلق، فالخلق عبارة عن التقدير، وكل ما كان جسما أو جسمانيا كان مخصوصا بمقدار معين، فكان من عالم الخلق، وكل ما كان بريئا عـن الحجميـة والمقدار كان من عالم الأرواح ومن عـالم الأمر»[(١)]؛ فالكل راجع إليه وصائر بين يديه سبحانه.

والمتتبـع لحديث القرآن عن الخلق والأمر يجد **هـذا الاطراد بين الخلق والأمر** سـواء أكان أمـرا مباشرا أو غير مبـاشر، ويمكن مراجعة هـذه الآيات الكريمة لنقف على عناية القرآن بالجمع بين **أمري الخلق والأمر** في سـور: البقرة ٢١، آل عمـران: ٤٧، ٥٩، النسـاء:١، التوبة: ٣٦، يونس: ٣، الشـورى: ٤٩، وغيرها من السور الكريمة التي عنيت بهذا.

وكل حقـل مـن حـقلي السـنن على حدة متسـم بنفس السـمة من التماسـك والاتسـاق فهي «بصفة عامة سواء أكانت كونية أم بشرية مرتبطة أشد الارتباط في وحـدة نظاميـة يأخذ بعضها بِحُجَز بعض، وتتماسـك في اتسـاق حتى تكون نظاما كونيا متناسقا أبدعَ ما يكون التناسق، يسير العالم في ظله بسماواته وأراضيه ومن فيهما وما فيهما، وما بين ذلك من خلق لا يعلم عددَه ولا حقائقه إلا مقدرُه وخالقـه، محكوما بتلك السـنن الإلهيـة التي لا تحيد عن خطها المرسـوم في لوح الأزل، وإنما عقـول الـبشر هي التي قد تنحرف عن التناسـق الكـوني إفراطا أو تفريطا، قصورا عن إدراك التناسـق أو جموحا في ارتياد تلك الوشـائج؛ فتتوهم وتتخيـل ثـم لا تلبـث الحقائق الكونيـة في سـنن الله أن تردها إلى دائـرة الحقيقة الكونية الكبرى ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فَاطِر: ٤١][(٢)].

(١) مفاتيح الغيب ١٤/ ٢٧٢.

(٢) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، ص ١١.

التناسب بين سنن الأنفس وسنن الآفاق

فهناك علاقة واضحة بين الآيات التي تأتي لتقيم سنة من سنن الله تعالى في الأنفس ونظائرها من سنن الآفاق، ففي هذا النموذج حديث عن الأرض الميتة وإحيائها «إشارة إلى الحشر، فذكر ما يدل على إمكانه قطعا لإنكارهم واستبعادهم وإصرارهم وعنادهم، فقال: ﴿ءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣] كذلك نحيي الموتى»[(١)].

بهذا التناسب بين إحياء الأرض الميتة وإحيائهم هم وبعثهم للنشور، فإن من يحيي الأرض الميتة والأرض الجُرُز يحي الأجسادَ الميتة للحساب والجزاء، بهذا التناسب والتناسق بين سنن الآفاق وسنن الأنفس.

الاستدلال بالظاهر الجلي والبعد عن الغامض الخفي بأبلغ الوجوه

وهذا نلحظه في الاستدلال بما ذكرته الآيات الكريمة الأرض مع ظهورها للخلق وانتفاعهم بها، لمن لم يلتفت إليها ولذا أجاب الإمام الرازي عن سر لفت النظر إلى الأرض مع ظهورها بأن القرآن يريد أن الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه، وأما من عرف الشيء بطريق الرؤية لا يذكر له دليل... فهؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والأنفس، وكذلك هاهنا آية لهم»[(٢)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٢).

البسط والتنويع في سنن الآفاق والاختصار في سنن الأنفس

وهذا ما نلاحظه من عدد السنن الواردة في الشريحة القرآنية الكريمة مقارنة بعدد سنن الآفاق في الآيات ذاتها؛ إشارة إلى أن الغرض الأسمى هو لفت أنظار العباد إلى السنن التي أقام الله عليها حياتهم والتي بها سعادتهم أو شقاوتهم، أما أختها فهي شارحة ومبينة وباسطة ومجلية لهذه السنن في أنفسهم.

التعقيب بآيات الآفاق على آيات الأنفس

وهذا واضح من النص على إخراج الحب من الأرض وكان كافيا أن يلفت القرآن النظر إلى الأرض فقط أما النص على (الميتة)و(أحييناها)و(فأخرجنا منها حبا) «**فله فائدة بالنسبة إلى بيان إحياء الموتى؛ وذلك لأنه لما أحيا الأرض وأخرج منها حبا كان ذلك إحياء تاما؛ لأن الأرض المخضرة التي لا تنبت الزرع ولا تخرج الحب دون ما تنبته في الحياة، فكأنه قال تعالى الذي أحيا الأرض إحياء كاملا منبتا للزرع يحيي الموتى إحياء كاملا بحيث تدرك الأمور**»[(١)].

التودد إلى العباد بما فيه صلاحهم وسعادتهم

من هذا التودد إلى العباد تذكيرهم بنعمه سبحانه عليهم، «**والسر في ذكر الأرض** أنها مكانهم ومهدهم الذي فيه تحريكهم وإسكانهم والأمر الضروري الذي عنده وجودهم وإمكانهم وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهي مكان لهم لا بد لهم منها فهي نعمة ثم **إحياؤها** بحيث تخضر نعمة ثانية فإنها تصير أحسن وأنزه، ثم **إخراج الحب** منها نعمة ثالثة فإن قوتهم يصير في مكانهم، وكان يمكن أن يجعل الله رزقهم في السماء أو في الهواء فلا يحصل لهم الوثوق، ثم جعل الجنات فيها

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٢).

نعمة رابعة؛ لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة، وأما الأشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجودا خصص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه لأن ألذ المطعوم الحلاوة، وهي فيها أتم ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة، ولا كذلك غيرهما ولأنهما أعم نفعا فإنها تحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة»[(١)].

وهذه الصورة من الذكر والإنعام لون من ألوان **التودد إلى العباد**؛ تقريبا لهم، وتأليفا لنفوسهم، وهذه طريقة القرآن وعادته في بيان مراد الله تعالى كما بدا ذلك في صدر سورة الرحمن كما ذكر الطاهر بن عاشور رحمه الله: (لأن معظم هذه السورة تعداد للنعم والآلاء فافتتاحها باسم الرحمن براعة استهلال، وقد أخبر عن هذا الاسم بأربعة أخبار متتالية غير متعاطفة رابعها هو جملة ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرَّحمٰن: ٥]... لأنها جيء بها على **نمط التعديد في مقام الامتنان والتوقيف على الحقائق والتبكيت للخصم في إنكارهم صريح بعضها**، وإعراضهم عن لوازم بعضها كما سيأتي، ففصل جملتي ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحمٰن: ٣ - ٤] عن جملة ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ خلاف مقتضى الظاهر لنكتة التعديد للتبكيت)[(٢)].

۞ التدرج والترتيب في الاستدلال بسنن الآفاق على سنن الأنفس

كما نلحظ هنا في هذا النموذج البديع من المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق التدرجَ الواضح في طريقة هذه المزاوجة، وفرَّق بين طريقة البيان عن الانتفاع بالثمار عن الانتفاع بالحب كما ذكرت الآيات الكريمة، «فأخر التنبيه على الانتفاع بقوله: ليأكلوا عن ذكر الثمار حتى قال: وفجرنا فيها من العيون

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) (التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٣١).

وقال في الحب: فمنه يأكلون عقيب ذكر الحب، ولم يقل عقيب ذكر النخيل والأعناب ليأكلوا؛ لأن الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الأمطار ولهذا يرى أكثر البلاد لا يكون بها شيء من الأشجار والزرع والحراثة لا تبطل هناك اعتمادا على ماء السماء وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج إليه الإنسان أعم وجودا، وأما الثمار فلا تتم إلا بالأنهار ولا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلهذا أخر»[١].

تنبيههم بطريقة عملية أشبه بالتلقين

فإنه سبحانه لما لم يجد شكرهم بعد كل هذه النعم التي نشأوا فيها فعلَ العاقل المريدِ دوامَ النعم نبههم على طريقة شكرها على سبيل التعليم والتلقين فقال:{ سبحان الذي خلق الأزواج كلها {وفيها استدلال أيضا على أن من خلق هذا لا يكون له شريك ولا يكون عاجزا عن إحياء الموتى.

التكامل بين سنن الأنفس وسنن الآفاق

وهذا واضح في الجمع بين ما تنبت الأرض وأنفسهم وما لا يعلمون في قوله تعالى: }سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ {(٣٦)، ذكر الله تعالى أمورا ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات.

فقوله: مما تنبت الأرض يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار.

وقوله: ومن أنفسهم يدخل فيها الدلائل النفسية.

وقوله: ومما لا يعلمون يدخل ما في أقطار السماوات وتخوم الأرضين[٢].

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٧) بتصرف يسير.

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٥).

تناسب المزاوجة مع مقاصد السورة التي وردت فيها

نلحظ هذا في المقارنة بين هذا النموذج المختار في سورة يس وحديث القرآن في سورة فصلت مثلا، فهنا تناول النموذجُ الحديثَ عن الليل والنهار بعد أن تحدث عن الأرض يقول الإمام الرازي: «لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي؛ فإن دلالة المكان والزمان مناسبة؛ لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر والزمان لا تستغني عنه الأعراض، لأن كل عرض فهو في زمان[1].

وتناسب المزاوجة مع مقصد كل سورة وردت فيها بادي حين نقارن بين نموذج سورة يس ونموذج سور فصلت التي يقول القرآن فيها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٧ - ٤٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٥).

هذا النموذج الذي حوى من سنن الأنفس:

- سنة الله في الملحدين في آياته
- سنة الله في الذين كفروا بالذكر لما جاءهم.
- سنة الله في مواقف الأمم مع رسلهم

التهديد والوعيد والترغيب والترهيب الذي عقب على هاتين السنتين ﴿... إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٤٣].

وحَوت من سنن الآفاق:

- آيتي الليل والنهار
- آيتي الشمس والقمر والدعوة إلى السجود لرب الشمس والقمر
- الأرض الخاشعة التي تهتز وتربو لنزول الماء والربط بين إحيائها وإحياء الموتى

ثم يأتي الفرق بين النموذجين في التناسب التام بين إيراد هذه المزاوجة ومقصد السورة على نحو عجيب؛ فسورة يس قدم فيها الحديث عن الأرض الميتة ثم أتى بعده الحديث عن الليل والنهار أما هنا في يس فالحديث عن الأرض الميتة وإحيائها أولا ثم الحديث عن الليل والنهار لأن «المقصود أولا هناك إثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧] ثم الحشر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فُصِّلَت: ٣٩] وهاهنا المقصود أولا إثبات الحشر لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر، يدل عليه النظر في السورة، وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فُصِّلَت: ٩] إلى غيره وآخر السورتين يبين الأمر»[1] ففي خواتيم فصلت يأتي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٥).

كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٥٢ - ٥٣]. وفي خواتيم يس يأتي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣].

التكامل في المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق

ومن التكامل والتناسب أن يأتي النموذج القرآني بالحديث عن الليل الذي فيه الظلمة التي تتشابه مع الأرض وظلمتها كما أن الليل فيه «سكون الناس وهدوء الأصوات وفيه النوم وهو كالموت ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ في الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال في الأرض: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [يس: ٣٣] فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت.» [(١)]

ولم تكتف الآية بذكر الليل وحده بل أشبعت الأمر وضوحا ب (نسلخ منه النهار)؛ لتتبين بضده منافعه، ولذا لم يذكر الليل في القرآن إلا وذكر معه النهار، وسبحان من كان هذا كلامه ونظامه وناموسه.

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٦).

الجمع بين الضروري والنافع للعباد

من ملامح المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق أن يجمع القرآن في حديثه بين الضروري للعباد الذي لا تقوم حياتهم إلا به والنافع الزيني الذي هو حلية لهم ومتاع؛ ف»الأمور التي أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والأول للحاجة والثاني للزينة فخلق الأرض وإحياؤها من القبيل الأول فإنها المكان الذي لولاه لما وجد الإنسان ولولا إحياؤها لما عاش والليل والنهار في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ﴾ [يس: ٣٧] أيضا من القبيل الأول، لأنه الزمان الذي لولاه لما حدث الإنسان، والشمس والقمر وحركتهما لو لم تكن لما عاش، ثم إنه تعالى لما ذكر من القبيل الأول آيتين ذكر من القبيل الثاني وهو الزينة آيتين إحداهما: الفلك التي تجري في البحر فيستخرج من البحر ما يتزين به كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فَاطِر: ١٢] وثانيتهما: الدواب التي هي في البر كالفلك في البحر[(١)].

◉ كما لاحظت أن الحديث عن سنن الجزاء يأتي دوما مع الحديث عن خلق السماوات والأرض؛ وكأن فيها إشارةً إلى أن من أقام السماوات والأرض بالعدل في الأكوان يقيم الحساب والجزاء بالعدل في الإنسان ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [يُونُس: ٣ - ٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٢٧).

◉ المزاوجة بين الحديث عن التغيير بالنصر بإيراد الحديث عن تغير الليل والنهار؛ كأن فيها إشارة إلى أن القادر على تغيير الليل إلى نهار والنهار إلى ليل قادر على أن يحيل المظلوم منتصرا والظالم منكسرا ﴿۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾ [الحَج: ٦٠ – ٦١].

◉ المزاوجة بين الحديث عن الخلق والحديث عن الهداية؛ كأن من له حق الخلق له حق الهداية ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعَام: ١].

◉ المزاوجة بين إيتاء الملك ونزعه بالحديث عن إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾ [آل عِمرَان: ٢٦ – ٢٧].

◉ المزاوجة بين سنن التغيير والحديث عن البرق والسحاب والرعد والصواعق ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ١١ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾ [الرَّعد: ١١ – ١٣].

المطلب الثاني

غايـات ومقاصد منهجية القـرآن في المزاوجة بين سنن الأنـفس وسنن الآفاق

لهذه المنهجية القرآنية في المزاوجة غايات ومقاصد من أهمها:

الإشارة إلى وحدة مصدر سنن الأنفس والآفاق

لله في كونه كتابان مسـطور ومنظور فالمسـطور هو القـرآن والمنظور هو الكون، فالكـون قـرآن منظور والقرآن كون مسـطور، والقرآن كلام الخـبير والكون صنع الخـبير، ولا يخالف كلام الخبير صنعه؛ لذا لن تجـد آية قرآنية تناقض آية كونية ولا سنة تكليفية تتعارض مع سنة كونية والسبب واضح أن صاحب الأمر هو صاحب الخلق وأن سنن الأنفس وسنن الآفاق مصدرها واحد وهو الله رب العالمين.

وقد دلت نصوص القرآن الكريم المتكاثرة على وحدة مصدر هذين الفرعين من فرعي السـنن المسـطور والمنظـور أو الآيات التشريعية والآيـات الكونية أو الأمر الكوني والأمر القدري بصورة لافتة، ومن هذه النصوص الكريمة

١ - قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَـا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُـمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّـا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُـمَّ مِـن نُّطۡفَةٖ ثُـمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَـةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَـةٖ لِّنُبَيِّنَ لَـكُمۡۚ

وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ [الحج: ٥ - ١٠].

وسنرى وحدة المصدر ظاهرة جلية في كل تعبير من تعبيرات الآيات الكريمة فخلق العبيد من تراب وجعل المضغة مخلقة وغير مخلقة ليبين لنا مسند إليه سبحانه، وإنزال الماء على الأرض الهامدة فتهتز وتربو مسند إليه، وتعليل هذا الصنع الحكيم كله القائم على عماد اسم الإشارة (ذلك) مفض إلى نتيجة حتمية قدرية هي ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحج: ٦].

٢- وقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢ وَلَئِن

سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العَنكَبُوت: ٥٩ - ٦٤].

فسنن الله تعالى في الأنفس المتمثلة في **سنة الله في الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وسنة الله تعالى في الرزق**، مربوط كله **بسنن الله في الآفاق** من خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر وبسط الرزق لمن يشاء من عباده وإنزال الماء من السماء لإحياء الأرض بعد موتها كل هذا مربوط بمصدر واحد يعبر القرآن عنه بضمير العظمة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾، ومرة يعبر عنها بالاسم الأجل الأعظم ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾.

٣- وقوله تعالى

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِۘ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحَج: ٦٣ - ٦٧].

إنك واجد في هذه الشريحة الكريمة من الآيات التعبيرَ عن الله صراحة أو ضميرا ست عشرة مرة في قرابة أربعة أسطر، ويتنوع الإسناد من سنن في الأنفس إلى سنن في الأكوان؛ إشعارا بأن مصدرها واحد هو الله رب العالمين،

فهذه النصوص وغيرها من النصوص الغنية الثرية المتكاثرة التي إن تفكرنا فيها وجدنا «العلاقة الواضحة بين كون الله سبحانه هو الحق، وبين خلقه لهذا الكون وتدبيره بنواميسه ومشيئته بالحق، وبين الظواهر الكونية التي تتم بالحق. وبين تنزيل هذا الكتاب بالحق، وبين الحكم بين الناس في الدنيا والآخرة بالحق.. فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر الله بما يشاء، وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشاء وفق ما يكون من الناس من الخير والشر في دار الابتلاء. ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة، وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدرارا... **فكل أولئك موصول بمصدر واحد هو الحق المتمثل في ذات الله سبحانه وفي قضائه وقدره، وفي تدبيره وتصريفه، وفي حسابه وجزائه، في الخير وفي الشر سواء..**»[(١)]

إن سنن الله تعالى في المجتمع جانب من جوانب الفكرة القرآنية التي بثها الله فى آيات هذا الكتاب المبين نظاماً اجتماعياً مترابطاً إلى جانب سنن الله العامة فى الكون، التي تصور فلسفة القرآن فى فهم الحياة كما تصور حكمته فى نعوت الكمال لله تعالى خالق الحياة، وفلسفة القرآن تجعل من الكون كله حقيقة واحدة طوى فيها خالقها دلائل وجوده، وبراهين وحدانيته، وآيات قدرته وعلمه وحكمته، ووكل إلى العقل البشرى تكليفاً وتشريفاً الكشف عن هذه الدلائل والبراهين بما أودع فيه من قوة إدراكية غائصة، وبما أمده به من عون فى تهديه إليها، وهذا المعنى هو خلاصة وعد الله تعالى لهذا العقل بالكشف عن آيات الله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣][(٢)].

---

(١) في ظلال (١٠/ ٢٧٣).

(٢) سنن الله في المجتمع، ص ٤.

الاستدلال بالنعم على المنعم وبالكون على المكون

من غايات القرآن الكريم ومقاصده الدلالة بالكون على مدبر الكون، والانتقال بالعباد من النعم إلى المنعم، ومن الأثر إلى المؤثر؛ لذا كثرت في القرآن الكريم الدعوة إلى النظر والتأمل والسير والتفكر في جنبات الأرض وما عليها والسماوات وما فيها، ولم يترك القرآن وسيلة لتنبيه الخلق إلى الخالق إلا دلهم عليها وأرشدهم إليها، ومن هذا المقصد الكلي في القرآن الكريم مزج القرآن بين آيات سنن الآفاق وسنن الأنفس وكلما ذكر سنة من سنن الأنفس مزج معها ما يناسبها من سنن الآفاق، فمثلا حين تحدث القرآن عن مجموعة من سنن الله تعالى في سورة الحج شملتها الآيات من ٥٦- ٦٢ شملت سنن الله تعالى في الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وسننه سبحانه في الذين كفروا وكذبوا، وسننه في الذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا، وسننه فيمن بغي عليه، يعقب على هذا كله بأنه سبحانه مولج الليل في النهار ومولج النهار في الليل وأنه الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل، وأنه سبحانه سميع بصير علي كبير ثم يلفت النظر إلى الكون وما فيه ودقاقه وخوافيه وظواهره البادية للعيان تلك التي تألفها عيون البشر فتعتادها فيذهب أثرها وتفقد قيمة تأثيرها فيهم فيأتي التعقيب اللافت لأمر يراه الناس كل حين ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: ٦٣].

«ونزول الماء من السماء، ورؤية الأرض بعده مخضرة بين عشية وصباح.. ظاهرة واقعة مكرورة. قد تذهب الألفة بجدتها في النفوس. **فأما حين يتفتح الحس الشاعر، فإن هذا المشهد في الأرض يستجيش في القلب شتى المشاعر** والأحاسيس. وإن القلب ليحس أحيانا أن هذا النبت الصغير الطالع من سواد

الطين، بخضرته وغضارته، أطفال صغار تبسم في غرارة لهذا الوجود الشائق البهيج، وتكاد من فرحتها بالنور تطير! والذي يحس على هذا النحو يستطيع أن يدرك ما في التعقيب بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.. من لطف وعمق ومشاكلة للون هذا الإحساس، ولحقيقة ذلك المشهد وطبيعته. فمن اللطف الإلهي ذلك الدبيب اللطيف.

دبيب النبتة الصغيرة من جوف الثرى، وهي نحيلة ضئيلة، ويد القدرة تمدها في الهواء، وتمدها بالشوق إلى الارتفاع على جاذبية الأرض وثقلة الطين.. وبالخبرة الإلهية يتم تدبير الأمر في إنزال الماء بقدر في الوقت المناسب وبالقدر المطلوب ويتم امتزاج الماء بالتربة، وبخلايا النبات الحية المتطلعة إلى الانطلاق والنور! والماء ينزل من سماء الله إلى أرضه، فينشئ فيها الحياة، ويوفر فيها الغذاء والثراء.. والله المالك لما في السماء والأرض، غني عما في السماء والأرض. وهو يرزق الأحياء بالماء والنبات، وهو الغني عنهم وعما يرزقون: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾. فما به سبحانه من حاجة إلى من في السماء والأرض، أو ما في السماء والأرض فهو الغني عن الجميع.. وهو المحمود على آلائه، المشكور على نعمائه، المستحق للحمد من الجميع»[(١)].

الدعوة العملية إلى عبادة الله وحده فإن من له الخلق له الأمر

في آيات سورة الحج التي تناولت صورا من مشاهد الكون الفسيح من إنزال الماء من السماء فتصبح الأرض مخضرة، وتأكيد أن ما في الأرض والسماء للغني الحميد وتسخير الله تعالى للعبد الفلك التي تجري في البحر بأمر الله يأتي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ

(١) في ظلال القرآن (١٣/ ٢٠٥).

لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: ٦٦] لتظهر «دلائل القدرة ودقة الناموس بالانتقال من **الكون إلى النفس** وعرض سنن الحياة والموت في عالم الإنسان، والحياة الأولى معجزة، تتجدد في كل حياة تنشأ آناء الليل وأطراف النهار. وسرها اللطيف ما يزال غيبا يحار العقل البشري في تصور كنهه.. وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر..

والموت سر آخر يعجز العقل البشري عن تصور كنهه، وهو يتم في لحظة خاطفة، والمسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة عريضة ضخمة.. **وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر..**

والحياة بعد الموت- وهي غيب من الغيب، ولكن دليله حاضر من النشأة الأولى.. وفيه مجال كذلك للتأمل والتدبر..

ولكن هذا الإنسان لا يتأمل ولا يتدبر هذه الدلائل والأسرار: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

والسياق يستعرض هذه الدلائل كلها، ويوجه القلوب إليها في معرض التوكيد لنصرة الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد عن نفسه العدوان. وذلك على طريقة القرآن في استخدام المشاهد الكونية لاستجاشة القلوب، وفي ربط سنن الحق والعدل في الخلق بسنن الكون ونواميس الوجود»[1].

إقامة الحجة والبرهان بالكون المسخر على العبد المخير

من يتأمل آيات القرآن الكريم يجد أنها تحفز النفس حفزا وتحثها حثا على أن تكون جزءً من الفلك الدائر والكون الماخر الذي يسبح بحمد ربه وأن لا يكون شاذا ولا نشازا عن منظومة هذا الكون البديع الخاضع لقهر الملك

(١) في ظلال القرآن (١٣/ ٢٠٨).

وإرادته، السابح في تمجيده كما قال تعالى بعد أن عرض إنكار الإنسان المهزول عن الخضوع لأمره والنزول على حكمه؛ رغم ما صرَّف له تعالى في القرآن ليذكر ويتعقل، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤١ - ٤٤].

وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنفض روحا حية تسبح الله. فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال.

وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب. كل حصاة وكل حجر. كل حبة وكل ورقة. كل زهرة وكل ثمرة. كل نبتة وكل شجرة. كل حشرة وكل زاحفة. كل حيوان وكل إنسان. كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء.. ومعها سكان السماء.. كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه، وكلما همت يده أن تلمس شيئا، وكلما همت رجله أن تطأ شيئا.. سمعه يسبح لله، وينبض بالحياة. ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ يسبح بطريقته ولغته ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين، ولأنكم لم تتسمعوا بقلوبكم، ولم توجهوها إلى أسرار الوجود الخفية، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتتوجه بها إلى خالق النواميس، ومدبر هذا الكون الكبير.

وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح، ويتوجه بالتسبيح، فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود، النابضة في كل متحرك وساكن، وفي كل شيء في هذا الوجود[١].

إن الله سبحانه ينبه بهذا الكون كله ينبه العبد أن يكون عبدا حقيقيا مسخرا لله تعالى ليسبح في هذا الفلك الماخر والكون الزاخر وينسجم مع من حوله من الكون والحياة من ذراته إلى مجراته، بل يعتب عليه أن يكون الكون كله كذلك وهو هو وحده الشاذ عن هذه الصفوف المتراصة الشارد عن هذه القافلة السائرة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: ٦٥ - ٦٦].

فالله تعالى سخر لهذا العبد نعمه التي لا تعد وعطاياه التي لا تحد حتى يكون هذا التسخير سبيلا إلى رد العبد إلى ربه وعرفانه بخالقه ورازقه، فمن سخر له هذه الأمور، وأنعم عليه بها هو الذي أحياه فنبه بالإحياء الأول على إنعام الدنيا علينا بكل ما تقدم.

ونبه بالإماتة والإحياء الثاني على نعم الدين علينا، فإنه سبحانه وتعالى خلق الدنيا بسائر أحوالها للآخرة وإلا لم يكن للنعم على هذا الوجه معنى. يبين ذلك أنه لولا أمر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوانات وذبحها

(١) في ظلال (١٢/ ١٦٤).

إلى غير ذلك معنى، بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقي، وإنما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به في باب الدين ولما فصل تعالى هذه النعم قال: إن الإنسان لكفور وهذا كما قد يعدد المرء نعمه على ولده، ثم يقول إن الولد لكفور لنعم الوالد زجرا له عن الكفران وبعثا له على الشكر، فلذلك أورد تعالى ذلك في الكفار، فبين أنهم دفعوا هذه النعم وكفروا بها وجهلوا خالقها مع وضوح أمرها[١].

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٤٨).

المبحث الثاني

آثار منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الله في الأنفس والآفاق

الناظر لتناول القرآن الكريم لسنن الأنفس والآفاق يجد أن هذا التناول كان على مستويين واضحين، **مستوى الفردية ومستوى المجتمعية**، ورتب نتائج كل نوع على مقدماته بصورة مطردة لافتة، بل مايز بين أنواع السنن الفردية داخل حقلها الخاص بصورة تدعو إلى التأمل الباني والتفكر المنتج الذي يحمل على إحسان تنزيل كل حقل من حقول السنن على ما يناسبه، ومن الخطأ الذي أراه في بعض الكتابات السننية أن يذهب كاتب إلى تنزيل سنن الأفراد على الشعوب أو الأمم أو العكس فيحمل السنة على غير مقصودها أو ينزلها على غير مناطها فتأتي كأنها رقم على ماء أو زراع في هواء.

لذا فالوعي بإدراك كل حقل من حقول السنن العامة (الأنفس – الآفاق) والوعي بالسنن الفردية كل سنة على حدة والجماعية كل سنة على حدة من أهمية التنزيل بمكان؛ فإحسان التصور بداية إحسان السلوك.

من هنا سأتناول هذه الآثار والنتائج على مستويين **مستوى الفرد ومستوى المجتمع** في المطلبين الآتيين

المطلب الأول

آثـار منهجيـة القـرآن في المزاوجة بين سـنن الله في الأنـفس والآفاق على الفرد

عُني القرآن الكريم بالفرد عناية فائقة فهو أساس هذا الكون؛ من أجله أنزل الله الكتـب وأرسـل الله الرسـل مبشرين ومنذرين، وهو الـذي إذا صلح صلح به الكون ونعمت به الحياة فكان هو إنسـان الشـهود لا إنسـان الجحود وإنسان العرفان لا إنسان النكران

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا ❁❁❁ إذا لم يكن فوق الكرام كرام

شـملت آيـات السـنن الفرد على مسـتوى ذاتـه في العقل والقلـب والضمير وارتباطه بالكون وأمره بالسير والنظر والتدبر والتأمل في السـنن الفردية وهذه نماذج منتخبة انتخابا أوليا من الآيات التي عنيت بسنن الله في الأفراد:

١ – ففي سـنن الجزاء يأتي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾ [الأنبياء: ٩٤].

٢ – وفي سنن العمل في الخير والشر الذي يحاسب بالفرد فيه على الذرة يأتي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨].

٣- وفي سنن تزكية النفس يأتي قوله تعالى:﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٥].

٤- وقوله تعالى:﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشَّمس: ٩ - ١٠].

٥- وفي سنن العاقبة والأمر بالنظر فيها يأتي قوله تعالى:﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٨٤﴾ [الأعراف: ٨٤].

٦- وفي سنن الله في الظالمين يأتي الأمر للفرد في قوله تعالى:﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾ [الأعراف: ١٠٣].

٧- وفي سنن الله تعالى في المكذبين يأتي قوله تعالى:﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ [يُونُس: ٣٩].

٨- وفي سنن التاريخ وأحوال الأمم يأتي قوله تعالى:﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾ [يُونُس: ٧٣].

٩- وفي سنن الله في المفسدين يأتي أمره تعالى للفرد بالنظر في قوله تعالى:﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النَّمل: ١٤].

١٠- وفي سنن الله في المكر والماكرين يأتي قوله تعالى:﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١﴾ [النَّمل: ٥١].

١١- وفي سنن الله تعالى في الظالمين يأتي قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القَصَص : ٤٠].

١٢- وفي سنن خلق الإنسان يدعوه القرآن الكريم إلى معرفة نفسه أولا ليعرف ربه ثانيا ثم يوقفه على الجزاء والمصير، في قوله تعالى ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطَّارِق : ٥ - ١٢].

١٣- وفي علاقته بالآفاق حوله يأتي أمره تعالى للفرد بالنظر إلى أخص شيء يحيا به وهو طعامه في قوله تعالى:﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عَبَس : ٢٤ - ٣٢].

ومن هذا التتبع البسيط نلاحظ أن سنن الفرد تنوعت فحديث عن سنن التزكية والتدسية وسنن العاقبة والمصير وسنن جزاء المفسدين إلى الحديث عن السنن التاريخية وأحوال الأمم الغابرين، إلى الحديث عن أصل خلقه هو وربط هذا الخلق بالخالق تعالى، وأن الذي خلقه أول مرة قادر على أن يعيده مرة أخرى، كما قال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأَنبِيَاء : ١٠٤]، ثم ربط هذا بسنن الآفاق حوله السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع.

هذا التناول السنني الذي يجعل الإنسان إنسانا سنيا وقافا على ما يعنيه من الحياة والأحياء سواء في خاصة نفسه أو خلقه أو في ضميره أو عقله يجعله إنسانا مربوطا بمصدره متطلعا إلى مصيره القائم على حسبان دقيق، فكما أن الشمس والقمر ﴿بِحُسۡبَانٍ﴾ فكذلك أفعاله هو وما يترتب عليها تقاس بمثقال الذر في الخير والشر.

هذا الفرد الرباني الذي يدرك نفسه ويعرف ربه هو عارف بزمانه مقبل على شانه هو الفرد السنني الواعب للواقع المدروس الذي يدرك الفرص والتحديات والقدرات والإمكانات ويفرق بين المباح والمتاح والقدرة والإمكان.

هذا الإنسان السنني كما صوره القرآن إنسان يدرك أن الإصلاح الحقيقي يبدأ من النفس المجاهدةوينتهي بالأمة الشاهدة.

هذا الإنسان السنني الذي تعرضه مجموعة السنن هذه يدرك نفسه ومهمته في ضوء منظومة سننية كونية متكاملة خاضعة لنواميس محددة وراسخة يتأتى على يديه على **مستوى الوعي** نتاج وعلى **مستوى السعي** نتاج:

فإنسان السنن على مستوى الوعي ينتج لديه صحة في التصور وحساسية في الشعور ويقظة في الضمير وتوكل رشيد لا تواكل فيه وتزكية متوازنة لا رهبانية فيها ومجاهدة محسوبة لا قسوة فيها ولا وكس ولا شطط، واتصال بالكون اتصالا يقوم على الانسجام لا الانفصام والتآلف لا التعاند ولا التخالف؛ لأنه يدرك أنه فرد في منظومة متناغمة وجزء من فلك ماخر وكون زاخر يغذ في مسيره إلى الله تعالى، كما صور القرآن الكريم في ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [يُوسُف : ٩٤ – ٩٦].

فالذي يعرف انسجامه مع الكون يتخذ موقف يعقب عليه السلام يدرك أن الريح من جند الله ويوسف من جند الله ويعقوب نفسه من جند الله فالكل سابح في فلك مستريح ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والذي يشذ عن هذا الكون المنسجم يتخذ موقف أبناء يعقوب ذاهلين عن هذا الترابط حتى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يُوسُف : ٩٥].

◉ إنسان السنن على مستوى السعي يدرك الفروق بين وظائف الفرد ووظائف المجتمع، فيعرف السببية ويحترم المسؤولية لا يلقي مهماته على غير ولا يلوم القدر على إخفاقه وتقصيره لأنه ليس عاجز الرأي الذي قال فيه الخليل بن أحمد الفراهيدي:

وَعاجِزُ الرَأيِ مِضياعٌ لِفُرصَتِهِ ❁❁❁ حَتّى إِذا فاتَ أَمرٌ عاتَبَ القَدَرا [١]

عندما يدرك إنسان السنن هذا يقدر على تغيير ذاته حسب سنن الله في النفس والآفاق لأنه يشعر أنه جزء من عالم كبير فسيح منداح منسجم مترابط يسبح كله للملك حالا ومقالا، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإِسرَاء : ٤٤].

وتزعم أنك جرم صغير ❁❁❁ وفيك انطوى العالم الأكبر [٢]

كما يتولد لديه على الانتقال من المحسوس إلى المجرد فتكون قراءته للكون قراءة مربوطة برب الكون قراءة بانية على نتاج من سبقوه يفيد منها ويعلي عليها

---

(١) منسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي ولم أعثر عليه في ديوانه.

(٢) ديوان علي بن أبي طالب من قصيدته: دوائك فيك وما تبصر، جمع عبد العزيز الكرم، ط أولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م ص ٤٤.

مهما طال الزمن بني الخالف والسالف، اعتنى القرآن بذلك عناية فائقة ولفت النظر إليها في سور عديدة وآيات كثيرة لما في ذلك من عبر ودروس وعظات تجعل السالف قادرا على إفادة الخالف، مهما طال الأمد فيما بينهما وتجعل الخالف يرى نتائج أفعال من سبقوه فيدرك أن أفعاله -أيضا- سيكون لها من الآثار مثل ما لأفعال من سبقوه إن خيرا فخير وإن شرا فشر وفي ذلك تكريس لمبدأ «المسؤولية الفردية والأثر الجماعي أو المجتمعي»؛ فيتعلم الإنسان بذلك كيفية الانضباط في أفعاله وتصرفاته ويتهيأ عقله ونفسه لقبول مبدأ «الجزاء والعقاب والثواب» ويتعلم النظر فيما يرث عن الآباء نظر الفاحص الناقد المعتبر، فيتخلص من هيمنة «الآبائية» وتقليها ومتابعتها على الحق والباطل، ويدرك كذلك أن للأمم التي خلت ما كسبت ولنا ما نكسب، ولا يغني أحد عن أحد من الله شيئا[1].

لقد ضرب القرآن الكريم نماذج فردية في هذا الباب جديرة بالتأمل والتأسي وهي نماذج عديدة وراشدة جمعت صفة إنسان السنن الجامع بين الوعي والسعي، وإذا وقفنا مثلا أمام نموذج واحد من هذه النماذج وجدنا تحقق هذه الصفات فيه بصورة جلية بينة، فذو القرنين مثلا بدت فيه هذا المعاني بصورة واضحة فعلى مستوى الوعي كانت الرؤية لديه واضحة فعلى مستوى الوعي لما قيل له: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ [الكهف: ٨٦] كان الميزان لديه معتدلا قائما بالقسط، فقال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٩﴾ [الكهف: ٨٧ - ٨٩].

(١) الجمع بين القراءتين الوحي والكون، ط دار السلام، بدون، أ د طه جاب العلواني.

وعلى مستوى السعي لما قيل له: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف : ٩٤]، لم يرد أن يقبل منهم العطاء وينوب عنهم في العمل بل حرص على أن يورثهم مهارة تبقى معهم، ويمنحهم وظائف العمران فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف : ٩٥ - ٩٦]، فأشركهم معه خطوة خطوة في مراحل التخطيط ومراحل التنفيذ ومراحل التربص والانتظار.

ينتج هذا التزاوج تأصيلا وتفعيلا

- عقلية منظمة تحسن الوعي بالواقع والاقتباس منه، وتتعلم من تجارب الأسلاف وتبني على تراثهم.
- عقلية نقدية تتعامل مع سنن الكون والحياة.
- سلوكا عمليا متوازن يطالع كتاب الكون وكتاب الوحي.
- صحة في الفهم ورشد في التصور.
- شعور بتماسك الكون كله من حوله وأنه جزء من منظومة متكاملة.

المطلب الثاني

آثار منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الله في الأنفس والآفاق على المجتمع

كما عُني القرآن الكريم بالفرد في لفت نظره إلى سنن الأنفس والآفاق والمزاوجة بينهما عني كذلك بالمجتمع الذي يتكون من هؤلاء الأفراد؛ فأتت آياته داعية لهم إلى النظر والتدبر، والسير والتفكر وربط ما يرون من آفاق وسيعة بسنن الله تعالى في الأنفس، وغَنيت آيات القرآن الكريم بهذه الأوامر والتوجيهات ومزجت بينهما بصورة لافتة، ومن نماذج هذا:

١- حديث القرآن الكريم عن سنن الخلق والهداية، والسنن التاريخية التي أجراها الله تعالى على القرون الأولى، فقال مخبرا عن فرعون حين سأل موسى عليه السلام: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٤٩ - ٥٢].

ثم ربط بين هذه السنن التاريخية وسنن الخلق والهداية بسننه في الآفاق فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ * مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا

نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه : ٥٣ - ٥٦].

٢- وحديث القرآن عن سنن التمكين في الأرض وجعله لهم منها معايش مع خلق آدم وذريته وتصويرهم وإسجاد الملائكة لهم، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف : ١٠ - ١١].

٣- وحديث القرآن عن سنن الله تعالى في الإيمان والكفران، وربط هذا بدعوته إلى النظر في السماوات والأرض، وإن كان هذا النظر والسير لا ينفع من أغلق بصيرته وإن نظر ببصره، ثم تذكير لهم بسنن الله تعالى التي أجراها على القرون الخالية، ثم تهديده لهم بسنن التربص والانتظار، فإنه لا يكون إلا ما أراد الله تعالى ولا يكون النصر إلا لمن استجمع أسبابه، فكان نصره حقا على الله تعالى فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يُونُس : ١٠٠ - ١٠٣].

٤- أمر القرآن لرسول الله تعالى بأن يخبر قومه أن يسيروا في الأرض، وأن يَفيدوا من سنن العاقبة التي حقت على المكذبين، وربط لذلك بكون ما في السماوات والأرض لله، وأنه تعالى من رحمته أن يجمع الناس إلى يوم

القيامة لا ريب فيه، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ * وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١ - ١٣].

٥- وحديث القرآن الكريم عن سنن الله تعلى في الأمم المكذبة وعن حكمته تعالى في بدء الخلق وإعادته وأن ذلك عليه يسير، ودعوة الناس إلى السير في الأرض ليروا كيف بدأ الله الخلق ويقيسوا على ما رأوا إمكان النشأة الآخرة فيقول: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العَنكَبُوت: ١٨ - ٢٠].

إلى غير هذه المواطن الكريمة التي تمزج بين السنن الاجتماعية والتاريخية وسنن العاقبة وغيرها مع الدعوة إلى السير والنظر والاعتبار والادكار، وتبدو آثار هذا المزج في إيقاف الخلق على سنن الله الماضية في الأنفس والآفاق وأن الوعي بالقراءتين مهم وضروري وملح في **التغيير والتأثير، والانعتاق والانطلاق**، وأن الوقوف عند قراءة واحدة لكتاب الكون أو كتاب الوحي قراءة شوهاء لا تَجمل، عرجاء لا تمضي خداج لا تقبل؛ لأننا لدينا كتابان كتاب الوحي وكتاب الكون، «**كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والوجود** بدءا من الإنسان، ولابد من قراءتهما - معا - لتوجد المعرفة الحضارية الكاملة التي تمكن الإنسان من القيام بمهام الاستخلاف وأداء حق

الأمانة، والقيام بمقتضيات العمران. وهي معرفة لا تقوم على التلقي وحده بل على الأخذ عن الغير بالمراجعة والمطالعة وقراءة الكتب وكتابتها وتنأّل الخبرات والمعارف بين البشر، واستعمال القلم – الذي علم الله به وجعله وسيلة للمعرفة وتبادلها وإنمائها وتناقلها»[١].

◉ ومن تأمل آيات القرآن الكريم ومنهجيته في عرض آيات السنن ببصيرة أدرك تماما أن كل واحدة من القراءتين مهمة لا تغني عنها أختها ولا تغني هي عنها، «**فالقراءتان فريضتان**؛ لأنهما أمران إلهيان، والجمع بينهما ضروري، إذ بدونه يقع الخلل؛ فمن تجاوز القراءة الأولى واستغرق كليا في القراءة الثانية – علم الوجود – فقد العلاقة بالله، وتجاهل الغيب وانطلق بفلسفة وضعية منبتة عوراء قاصرة في مصادرها، تحاول أن توحد بين الإنسان والطبيعة، وتعتبر الخالق والغيب كله مجرد ما ورائيات، إذا كانت قد مارست خلقا أو إيجادا فقد تكون مارسته بقوة الدفعة الأولى، ثم تناسته أو نسيته ليستمر الكون بعد ذلك فاعلا ومفتعلا بشكل آلي[٢].

وإذا توفرت هذه القراءة بتلك المنهجية المتوازنة بين قراءة المسطور والمنظور أو بتعبير د العلواني **قراء في كتاب الكون وفي كتاب الوحي**، أثرت في المجتمع تأثيرا جماعيا فصار هذا الوعي ثقافة أمة، فيحدث الانضباط على مستوى المجموع، ويدرك كل فرد أنه جزء في مملكة واسعة، تتجاور فيه الصلاحيات

---

(١) الجمع بين القراءتين. طه جابر العلواني العدد ٣٢١ ربيع ١-ربيع ٢/ غشت-شتنبر، على هذا الرابط https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/8072، طولع ١٣-٥-٢٠٢٥م، هذا وقد أوسع الدكتور طه رحمه الله هذا الموضوع بيانا في كتاب مستقل بعنوان: الجمع بين القراءتين من منشورات دار السلام.

(٢) الجمع بين القراءتين. طه جابر العلواني العدد ٣٢١ ربيع ١-ربيع ٢/ غشت-شتنبر، على هذا الرابط https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/8072، طولع ١٣-٥-٢٠٢٥م.

والتكليفات وتتوزع فيه الحقوق والواجبات، ويحدث وعي بسنن التداول والتدافع والعاقبة، فيتهيأ المجتمع للإقلاع الحضاري على مستوى التفكير والتصور فيحسن الاقتباس كما يحسن التجاوز، ويجيد الانتقاء من تراثه حسب متطلبات عصره؛ فيكون ابن زمانه مقبلا على شانه، مربوطا بالأصل، موصولا بالعصر، لا يقفز على تراثه ولا يتنكر لأصوله ؛**لأن أول التجديد قتل القديم بحثا**، كما كان يقول أمين الخولي رحمه الله، فنحن مطالبون بأن نقبس من التاريخ لا نقدسه، وفي الوقت ذاته لا نتجاوزه ولا نقفز عليه؛ لأن من ليس له ماضي ليس له حاضر ولا يتوقع أن يكون له مستقبل.

أو كما قال شوقي رحمه الله:

مَثَلُ القَومِ نَسوا تاريخَهُم ❁❁❁ كَلَقيطٍ عَيَّ في الناسِ اِنتِسابا

أَو كَمَغلوبٍ عَلى ذاكِرَةٍ ❁❁❁ يَشتَكي مِن صِلَةِ الماضي اِنقِضابا

وينتج من هذا التزاوج:

- عقل جمعي يدرك سنن النهوض والشهود والإقلاع الحضاري.
- فهم لأسباب الصراع المجتمعي ووضع حلول وبدائل له قبل حدوثه.
- رشد في اتخاذ القرارات الاستشرافية بناء على الوعي السنني.
- مناعة حضارية قائمة على أصول تراثية راشدة متجاوزة لخلل المرحلة الزمنية مراعية لتسارع التطور في الإنسان والبنيان والأفكار.

الخاتمة؛ أسأل الله حسنها،،،

وبعد،،، فهذه رحلة ماتعة عشت فيها مع فكرة لفتتني إليها لفتا من أثر تتبعي لعادة القرآن الكريم في عرض آيات السنن فبان منها الآتي:

- أن كل موضع وردت فيه سنة من سنن الله في الأنفس وردت فيه سنة من سنن الله في الآفاق.
- أن للقرآن منهجيةً مطردة في المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق.
- ضرورة الجمع بين القراءتين قراءة المسطور وقراءة المنظور حتى يتحقق الإقلاع الحضاري للأمة المسلمة.
- التناسب المطرد بين كل سنة وأختها في عرض القرآن الكريم.
- أن السنن عامة تحكمها منظومة متكاملة يمهد بعضها لبعض ويؤكد بعضها بعضا.
- لا تتناقض آية تكوينية مع آية تكليفية.
- أن العلاقة بين سنن الأنفس والآفاق واضحة عموما لكنها في التعليل والإفادة تحتاج إلى إمعان نظر وإدامة فكر.
- أن الإدراك المعرفي للمنهجية القرآنية في المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق مهم جدا في تحقيق الرشد على مستوى الفرد والمجتمع. في تعرف المهام والوظائف والحقوق والواجبات وفي التمايز بين ما له وما عليه فردا ومجتمعا.

- أن السياق الخاص الذي ترد فيه المزاوجة له تأثيرٌ على منهجية المزاوجة في القرآن الكريم بين سنن الأنفس وسنن الآفاق بحيث يؤدي إلى تنوع المنهجية بحسب السياق في كل موضع، فتأتي المزاوجة في القرآن الكريم متناسبة مع السياق السوري ومحور السورة بل كثيرا ما تأتي متناسقة مع المفردات التي استعملتها السورة الكريمة.

أوصي بـــ:

- إيجاد برامج تدبرية تعين على إحسان الجمع بين قراءة المسطور والمنظور
- ضرورة تبني المؤسسات الفاعلة كمراكز التعليم والتكوين هذه البرامج
- العود بالقراءة إلى المعرفة القرآنية من أهم الحلول المقترحة للبعد عن الطغيان بشتى صوره، كما نبهت سورة العلق.
- العمل على مشروع متكامل للوعي بمزاوجة القرآن بين سنن الأنفس وسنن الآفاق على مستوى القرآن كله.
- إعادة النظر في منظومة علوم القرآن وأدواته بما يتناسب مع إتاحات العصر حتى تنتج هذه العلوم معرفة حقيقة تسهم في تجاوز الأمات الراهنة.

والله وحده المستعان وعليه التكلان

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: أهم المصادر والمراجع

١- التحرير والتنوير، ابن عاشور(ت:١٣٩٣هـ)، الدار التونسية، بدون طبعة، (١٩٨٤م).

٢- الجمع بين القراءتين الوحي والكون، ط دار السلام، أ د طه جاب العلواني.

٣- خلق الإنسان بين العلم والقرآن، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦، للدكتور عبد الفتح طيره.

٤- دلائل النبوة للبيهقي مخرجا (٢/ ١٩٩) أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، ت: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة: الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨.

٥- ديوان علي بن أبي طالب، جمع عبد العزيز الكرم، ط أولى ١٤٠٩هـ -١٩٨٨م.

٦- ديوان المتنبي، عناية مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية ط أولى ١٤٤٥هـ-٢٠٢٣م ت محمد البطشان.

٧- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، للمرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون، ط الدار السعودية، ط الثالثة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٨- في ظلال القرآن، الشهيد سيد قطب(١٣٨٧هـ)، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط/ ٣٢، (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م).

٩- القرآن والعلم الحديث، د/ منصور محمد حسب النبي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م.

١٠- الله والعلم الحديث دار الشعب ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م للأستاذ عبد الرزاق نوفل

١١- المدخل إلى التفسير الموضوعي، لأستاذنا د عبد الستار فتح الله سعيد ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط: الثانية،١٤١١هـ،١٩٩١م.

١٢- المستدرك على الصحيحين للحاكم لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠.

١٣- مصنف ابن أبي شيبة ت: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩.

١٤- المعجم الكبير للطبراني ت حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية.

١٥- مفاتيح الغيب للرازي، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ.

١٦- النهاية في غريب الحديث والأثر مجد الدين أبو السعادات، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

١٧- نحو تفسير سنني لسور القرآن الكريم، ط أولى عام ٢٠١٤م- ١٤٣٥هـ ط دار المقاصد، د رمضان خميس.

مواقع عنكبوتية/

١٨- موقع وزارة الأقاف المغربية مجلة دعوة الحق: الجمع بين القراءتين. طه جابر العلواني العدد ٣٢١ ربيع ١-ربيع ٢/ غشت-شتنبر، على هذا الرابط https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/8072.

فهرس العناوين

مقدمة ٥

المبحث الأول: غايات ومقاصد منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الأنفس والآفاق ١١

قبليات معرفية ١٢

التوازن والنظام: ١٤

الإحكام المطلق: (تقدير) ١٧

المطلب الأول: ملامح منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق ١٨

التماسك والاتساق بين سنن الأنفس وسنن الآفاق ٢١

التناسب بين سنن الأنفس وسنن الآفاق ٢٣

الاستدلال بالظاهر الجلي والبعد عن الغامض الخفي بأبلغ الوجوه ٢٣

البسط والتنويع في سنن الآفاق والاختصار في سنن الأنفس ٢٤

التعقيب بآيات الآفاق على آيات الأنفس ٢٤

التودد إلى العباد بما فيه صلاحهم وسعادتهم..... ٢٤

التدرج والترتيب في الاستدلال بسنن الآفاق على سنن الأنفس..... ٢٥

تنبيههم بطريقة عملية أشبه بالتلقين..... ٢٦

التكامل بين سنن الأنفس وسنن الآفاق..... ٢٦

تناسب المزاوجة مع مقاصد السورة التي وردت فيها..... ٢٧

التكامل في المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق..... ٢٩

الجمع بين الضروري والنافع للعباد..... ٣٠

المطلب الثاني: غايات ومقاصد منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الأنفس وسنن الآفاق..... ٣٢

الإشارة إلى وحدة مصدر سنن الأنفس والآفاق..... ٣٢

الاستدلال بالنعم على المنعم وبالكون على المكون..... ٣٥

الدعوة العملية إلى عبادة الله وحده فإن من له الخلق له الأمر..... ٣٧

إقامة الحجة والبرهان بالكون المسخر على العبد المخير..... ٣٨

المبحث الثاني: آثار منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الله في الأنفس والآفاق..... ٤٣

المطلب الأول: آثار منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الله في الأنفس والآفاق على الفرد..... ٤٥

المطلب الثاني: آثار منهجية القرآن في المزاوجة بين سنن الله في الأنفس والآفاق على المجتمع..... ٥٢

الخاتمة؛ أسأل الله حسنها،،، ٥٧

فهرس المصادر والمراجع ٥٩

أولا القرآن الكريم..... ٥٩

ثانيا أهم المصادر والمراجع ٥٩

فهرس العناوين ٦١

هـذا الكتـــاب

يكشـــف المنهجيـــة القرآنيـــة فـــي المزاوجـــة بيـــن ســـنن الأنفـــس وســـنن الآفـــاق، مبيِّنـــا كيـــف يجمـــع القـــرآن بيـــن قوانيـــن النفـــس البشـــرية ونواميـــس الكـــون فـــي نظـــام واحـــد متناســـق، يرســـخ الوعـــي ويهـــذب السلوك ويقود إلى الفهم والعمل.

دراســـة اعتمـــدت الاســـتقراء والتحليـــل لتبـــرز الغايـــات والآثـــار المعرفيـــة والتربويـــة لهـــذا الترابـــط العجيـــب، مؤكـــدة أن القـــرآن كتـــاب هدايـــة شـــامل للإنسان والزمان والمكان.

isbn: 978-625-5521-67-5

22762 Doha,Qatar
+974 44181826
tadabborq@gmail.com